كانتْ أهم موانئ اليمن على الإطلاق..

المخا.. زُمُرُّدَةُ الساحلِ الغربي لليمن!

■ منذُ الصغر وأنا أقرأ وأسمعُ عن مدينة وميناء المخا التاريخي والاقتصادي وما كان لهما من دور حيوي في القرون السابقة حين كان ميناء المخا أهم وأشهر موانئ اليمن على الإطلاق،بدليل ما ذكرَهُ الرحّالة الأوروبيون عن هذا الميناء وما سطّرَهُ المؤرّخون ودوّنوهُ في كُتبهم من شذرات تاريخية هامة توضح كم كان لهذا الميناء وهذه المدينة من أهمية وكم لعبتْ من أدوارٍ في تاريخ واقتصاد اليمن القديم.

وهذا كان الدافع الأكبر الذي جعلني أيممُ وجهي شطر مدينة وميناء المخا،خاصة وأنّ شهرتها الاقتصادية كانت إلى وقتٍ قريب في ثمانينيات القرن العشرين المنصرم تملأ الآفاق ولا يكاد يوجد شخصٌ في اليمن لم يسمع بأهمية ميناء المخا الذي كان يتقاطر عليه التجار من كل حدبٍ وصوب.

استطلاع وتصوير/ فايز محيي الدين البخاري

● حين عزمتُ السفر باتجاه مدينة المخا من مدينة الحديدة عروس البحر الأحمر كانت الذكريات التاريخيَة تجسّدُ لي مدينة وميناء ضخمين أرى فيهما حركة العمل وزحمة الاستيراد والتصدير على مدار الساعة..وفوق هذا وذاك كنتُ أتخيّل أنّي سأصل إلى مدينة وميناء لايقلا جمالاً عن ميناءي ومدينتي عدن والحديدة،خاصةً وأنّ المخا بميناءها كانت من المدن الموغلة في التاريخ ولها باعٌ طويل في مجال التجارة العالمية،بدليل ما ذكرَهُ عنها الرحّالة الأوروبيون وما وردَ في كُتبهم من امتداح لقهوة البن المخاوي أو بُن المخا الذي كان أشهر بُنٍ في العالم،واشتهر في بلاد أوروبا بـ(بُن موكا) وكان مصدرُهُ ميناء المخا.. وهذا ما دفعَ العديد من البلدان الأوروبية في القرنين السابع عشر والثامن عشر الميلاديين إلى غزو هذا الميناء ومحاولة السيطرة عليه،وعلى رأس أولئك البرتغاليون الذين أحكموا سيطرتهم في فترة من الفترات على ميناء المخا ومعظم السواحل الغربية لليمن.

قبل حوالي خمس عشرة سنة كنتُ قد قرأتُ عن تاريخ مدينة المخا وأهميتها في كتاب (من كوبنهاجن إلى صنعاء) الذي ترجمَه الأستاذ محمد أحمد الرعدي في طبعته الأولى الصادرة عن مركز الدراسات والبحوث اليمني قبل أنْ يتفضّل الأستاذ خالد الرويشان بإعادة طباعته حينما كان رئيساً للهيئة العامة للكتاب.. وهذا الكتاب يشرح قصة الرحّالة الدنماركيين الذين مثّلوا أوّل بعثة أوروبية إلى بلاد العربية السعيدة(اليمن) والتي عُرفَتْ فيما بعد برحلة نيبور؛وكان هو الشخص الوحيد الذي نجا من الموت من أفراد تلك الرحلة وشاء له القدر ذلك ليعود ويسردَ ما كان وما رآهُ في رحلته إلى بلاد العربية السعيدة ليكون ما دوّنَهُ اهداً مهماً فيما بعد على حِقبة هامة من تاريخ اليمن السعيد..

وللتاريخ حكاية

■ لقد كان من حظ هذه المدينة أنْ ووريَ فيها جثمان أحد أولئك الرحالة وهو البروفيسور فون هافن المتخصص في اللغات وذلك في بعد ظهر يوم السادس والعشرين من مايو أيار عام١٧٦٣ م في المقبرة الأوروبية في المخا التي كانت تبعد قليلاً عن المدينة حسب ما ذكرَهُ نيبور في مذكّراته.

حين وصلتُ المخا لم أجد مما قرأتُهُ في كتب التاريخ وما سمعته منذ الصغر شيئاً ،لقد كان كل ما فيها يوحي بأنّ المدينة الحالية قد انسلخت عن القديمة تماماً،ولكن للأسف ليس نحو الأفضل؛فكل ما فيها يحن لماضٍ لم يعد منه سوى أطلال تثير الشجن وتبعثُ في النفس ألف سؤال وسؤال..لماذا لم تعدْ المخا كما كانت مهوى الأنفُس وملتقى التجارة العالمية وقبلة التجار من كل أقطار الأرض؟ وكيف تتطور المُدن نحو الأفضل إلا مدينة المخا؟؟

أسئلة وهواجس دارتْ في خَلَدي وأنا أُشاهدُ بقايا أطلال لمدينة وميناءٍ كانا في يوم من الأيام ملء السمع والبصر،واليوم أضحيا يباباً وخرائبَ ينعَقُ في جنباتها البوم والغربان،وبالذات الفنار الذي ظلّ لفترة طويلة يهدي السفن ويهتدي به الكثير من البحّارة.

والأمر كذلك هو بالنسبة لمعظم العمارات القديمة التي كانت من الأهمية بمكان في عهودٍ سابقة،وبالذات جامع الشاذلي.أمّا ما أعجبني فقد كان رصّ بعض الشوارع في المدينة القديمة بالأحجار التي يسمى ((صلل)) الأمر الذي عكس صورة جميلة عن هذه البنايات والحارات التاريخية؛فضلاً عن الإيحاء باهتمام الدولة بالمخا ولكنّهُ اهتمامٌ لايزال دون المستوى المطلوب بكثير.

الحاجة للتشجير

■ في الساحل وعند الميناء كان أوّل ما لفتَ انتباهي هو كثرة الرمال التي تحملها الرياح نحو المدينة وتكاد تعمي الأنظار ولا يستطيع المرء أنْ يتملّى بحُسن شواطئ المخا بسبب تلك الرياح المحمّلة بحبيبات الرمال.

وهو مالم يعرف السكان مثلها في أي موسم سابق ،مما أثر في حياة الناس وأدى بهم إلى ملازمة بيوتهم لتفادي كثير من الأضرار التي تسببها قوة هذه الرياح المحملة بالكثبان الرملية التي لا ترحم في طريقها أي شيء والناجي منها عليه وهو عائد إلى منزله أن يفرغ عند قعر داره حمولة زائدة من الرمال والأتربة وما ألقت عليه هذه الرياح من حمولات أخرى..

كما أن هناك تحذيراً من خروج الأطفال والعجزة إلى الشوارع خوفاً من هذه الرياح والزوابع الترابية الشديدة والقاسية التي جعلت مدينة المخا وأهلها تحت رحمة الوضع المناخي المتقلب على موسمه الذي اعتاد عليه الناس والمدينة في كل موسم من مواسم الرياح السنوية.ما يجعلها اليوم أحوج لحزام التشجير وإلى كثير من المبادرات الشعبية لإعادة الاهتمام بزراعة النخيل في المنطقة لما لها من فائدة كبيرة في إيقاف الزحف الرملي على المدينة وكذا مقاومة مثل هذه الزوابع الترابية، إلا أن تلك المبادرات يبدو أنّها غائبة في مدينة المخا،حيثُ أهملها سكانُها دون مبالاة بمواسم الرياح مع معرفتهم بهذه المواسم من جيل إلى آخر.

وهذا ما أكّدَهُ لنا بعض مَن قابلناهم من كبار السن في المخا،الذين قالوا إنّ رياح هذا الموسم غير المعتاد والمناطق الساحلية من المخا إلى ميدي تتعرض لمثل هذه الرياح الموسمية وتسمى عند سكان المخا بـ«الحسوم» وفي الآية القرآنية قال الله تعالى «سخرها عليهم سبعَ ليالٍ وثمانيةَ أيّام حُسُوْمَاً» وتستمر سبعة أيام أو سبع ليال ثم تأتي بعدها رياح عَاتية تستمر أربعين يوماً وتشتد وقت الساعة الأخيرة من وقت العصر حيث تكون مصاحبة لهذه الرياح غوبة تغطي المخا وتستمر لنصف ساعة أو أقل وحينها يحتمي الناسُ في بيوتهم خشيةً من الخروج إلى الشارع وتتوقف الحركة تماماً حتى تَخرج الغوبة من المخا ومن المنطقة.ويقال بأنّ الشيخ المناضل محمد علي عثمان كان أوّل مَن أدخل نظام التشجير إلى مدينة المخا في ستينيات القرن العشرين عقب قيام ثورة السادس والعشرين من سبتمبر عام ١٩٦٢م حين كان عضواً في المجلس الجمهوري الذي هو بمثابة مجلس الرئاسة.

موقع فريد

■ في الكتب التي تؤرّخ لمدينة المخا وفي قواميس ومعاجم البلدان وعند الذين كتبوا عنها يُذكر أنّ المخا مدينة وميناء تقع غرب مدينة تعز بحوالي٤٩ كيلو متراً على ساحل البحر الأحمر، تتبع محافظة تعز وتتكون مديرية المخا من ٤ عزل ويصل عدد سكانها ما يقارب ٢٦ ألف نسمة. يمتد تاريخ هذه المدينة إلى ما قبل الإسلام، حيث ذكرتها النقوش الحميرية باسم «مخن»، كما ذُكرَ اسمُها في نقوش يمنية قديمة بخط المسند مثل نقش الملك (ذو نواس) يَذكرُ هذا النقش أنّ الملك (ذو نواس) قاد جيشه إلى «مخن»، واستولى عليها بعد قتاله الأحباش، ويعود هذا النقش إلى عام٥٢٥ م أي قبل الغزو الحبشي لليمن.

تعرضت المدينة لعدة حملات عسكرية أهمها حملات البرتغاليين في أوائل القرن العاشر الهجري على سواحل اليمن ومن ثم سارع احتدام التنافس بين الدولة العثمانية والحكومة البريطانية على المنطقة كانت نتيجتها طرد البرتغاليين من احتلال السواحل اليمنية، وقد دخلت الدولة العثمانية مدينة المخا عام ٩٥٤هجرية،إبان الغزو العثماني الأوّل كما يقول الأستاذ أحمد حسين شرف الدين في كتابه «اليمن عبر التاريخ»، وذكر أن مدينة المخا كانت تشكل موقعاً عسكرياً ينطلق منه العثمانيون لشن غاراتهم على البرتغاليين.

ميناء هام

■ ورغم ما مرّتْ به مدينة المخا وما نالها من تقلّبات الزمن وصروف الأيّام إلا أنّها لاتزال تحافظ علَى بعض رونقها من خلال الشارع العام الذي تمّ تشجيره كما أسلفنا في الستينيات،ومن خلال الساحل الجميل الذي يعكس بروعته على مدينة المخا جمالاً نادراً وبريقاً يجعلها تزري بأجمل مدن العالم،فقط لو تمّ الاهتمام بها كما يجب ،وتوفّرتْ لها إرادة قوية ونية صادقة،فهي إلى الآن مازالتْ تعيش على أمجادها السابقة حين كانت أهم ميناء في الجزيرة العربية في القرن السابع عشر الميلادي، حين عرفها العالم من خلال تصديرها لأجود أنواع البن اليمني. وفي هذا الصدد يقول المؤرخ عبدالواسع الواسعي الذي عاش زمن الإمام يحيى حميدالدين وعاصرَهُ وأرّخَ لفترته وزمنه: باسم المخا سمّى الإفرنجُ أفخرَ البُنّ عندهم الذي عرف باسم «موكا كوفى «التي تعني بن المخا، إضافة إلى تصدير عدد من السلع اليمنية إلى الخارج كالصبر والبخور وأعواد الأراك.

ولكن للأسف – وكما يقول أحد الكتاب– لم يتوقف تعذيب جسد هذه المدينة بتدمير قلاعها وهدم منازلها وقصورها ومتاجرها، فكان أكثرها وحشية الحرب العثمانية الايطالية في بداية القرن العشرين، وكذا أثناء الحرب العالمية الأولى حين دمرها البريطانيون في قتالهم للعثمانيين.ها نحن بعد مئات السنين نترك تاريخ الحرب إلى حاضر يحمل صور السلام التي تعيشه هذه المدينة التي ما زال التاريخُ يفوحُ من كل أرجائها رغم الإهمال الواضح للعيان.

كنوز طبيعية

■ ورغم جمال الشارع العام الذي يتوسط المدينة ويقع إلى الجنوب من السوق والحي القديم وفيه توجد الأشجار الباسقة إلا أنّ بقية الشوارع عارية من الإسفلت كغيرها من أزقة وشوارع المدينة التي تركت لتحتضن الأتربة فتمنحها للرياح لتكتم الأنفاس وتغبر الوجوه ناهيك عن ذلك غياب الإنارة إلا من هذا الشارع الوحيد والرئيسي..

سواحل المخا لا تزال جميلة رغم الإهمال الذي تعاني منه،وذلك بسبب موقعها وجغرافيتها النادرة التي حباها الله بها،فضلاً عن أنّها جميلة أيضاً بطيب أهلها ووداعتهم وميْلهم للسلم والبساطة التي قَلّ أنْ تجدَها في موطن آخر على امتداد الخارطة اليمنية إلّا في بقية المناطق التهاميَّة التي لا تزال ترزح في غياهب النسيان رغم ما تحويه من كنوز طبيعية وأرض خصبة بإمكانها أنْ تغطي احتياجات اليمن من الحبوب لعقودٍ من الزمن خلال موسمين أو ثلاثة لو تمّ استزراعها بشكلٍ سليم.

بعد تجوال طويل في سوق المخا والحي القديم وجامع الشاذلي والفنار الذي سنتطرق لهم في استطلاع آخر إن شاء الله ودّعنا مدينة المخا باتجاه باب المندب بعد أنْ تركت فينا انطباعاً لا يُنسى وذكريات ستظل حيّة على مدار السنين،فقط لأنّها المخا التي تودّع زائريها بمحبةٍ مفعمة كما تستقبلهم بكل ترحاب.

شواطئ فاتنة ورمال ذهبية ناعمة

بئر علي بشبوة..

موطن الجمال الأول وأقدم الموانئ اليمنية

استطلاع/ عبدالباسط النوعة

■،، ما أجمل السفر والترحال بين ثنايا المدن والسواحل اليمنية وكم هي المتعة والسعادة التي لا يمكن وصفها أو حتى حصرها ووصف مقدارها، فا فاسبوع واحد ربما يكون كفيلاً للتمتع وزيادة عدد من المحافظات ومع أن هذا الوقت قصير جداً إلا أن تأثيراته الإيجابية على النفس والروح كبيرة جداً بحيث يصعب على الانسان أن يحصرها أو يجملها في أي حديث، قد شاءت الاقدار أن تتيح لنا فرصة للقيام بزيارات سياحية خاطفة لعددٍ من المحافظات اليمنية وكانت مدة البرنامج أحد عشر يوماً في هذه الأيام القليلة استطعنا اكتشاف الكثير والكثير من المعالم والمدن الرائعة والمناطق التاريخية والاطلاع على معارف ومعلومات عن المدن والقرى وخلفياتها المعلوماتية بصورة أبلغ من كلمات الكتب ومحتويات المعاجم فرؤيا العين أبلغ اللغات التي تدخل إلى القلوب والأفئدة لتستقر في العقول، وكانت بين تلك المناطق الكثيرة التي زرناها مدينة رائعة الجمال فاتنة المنظر عريقة النسب والجذور شهدت أحداثاً تاريخية عظمية احتلت مكانة رفيعة في إحدى الحقب الزمنية الفائتة إنها مدينة بئر علي بمحافظة شبوة وهي تتبع مديرية رضوم وكانت قبلها تتبع مديرية ميفعة..

منتزه رائع

بعد أن أكملنا زيارة مدينة عدن تلك العروس التي دائماً ما تكون في أبهى صورة وأجمل منظر سيما فصل الشتاء حيث يعتدل الجو فتصبح أكثر إمتاعاً وسعادةٍ ويكون التجوال في شواطئ وشوارع المدينة نزهة صباحاً ومساءً، اتجهت بنا الحافلة باتجاه محافظة حضرموت مررنا ببعض مناطق محافظة لحج ثم محافظة أبين، دخلنا محافظة شبوة، وكان لزاماً علينا أمام اللوحة الفاتنة التي كانت في استقبالنا أن نحط الرحال لنستطلع المكان ونرتشف القليل من الهواء العليل الذي يعم ذلك المكان والشواطئ الجميلة التي تمتد على جنبات الطريق، أخبرنا العم (سعيد) المرشد السياحي في تلك الرحلة أن هذه المنطقة تسمى بئر علي وهي موقع سياحي فريد جداً يعشقه الكثير من السياح ويقف عنده الكثيرون متأملين في الجمال الأخاذ واللوحة الفاتنة التي حباها الله لهذه المنطقة حتى أن بعض السياح يعمد إلى الإقامة في هذه المنطقة عدة أيام وعندما سألناه في أي مكان يمكثون والمنطقة لا توجد فيها فنادق أو منتزهات لاسيما وأن العم (سعيد) أخبرنا أن منطقة بئر علي تمتاز شواطئها وسواحلها الجميلة التي تقع على البحر العربي بالإضافة إلى أنها كانت تحوي أقدم الموانئ اليمنية على الاطلاق «ميناء قنا التاريخي الذي كانت مكانته قديماً عظمية جداً وقد احتل شهرة عالمية واسعة وقد ذكره الكثير من الرحالة والتاريخيين حول العالم، بالإضافة إلى أنه بئر علي كانت تحوي قلعة حصينة جداً في قمة جبل شاهق الارتفاع ولا يمكن رؤيتها من الأسفل وقيل لنا بواسطة أحد الاشخاص من تلك المنطقة أنه توجد بعض الآثار المهدمة في قمة الجبل وبقايا تلك القلعة.

وعن إقامة بعض السياح في بئر علي وتحديداً في الشواطئ قال العم سعيد شريان إنه يوجد أسفل القلعة منتزه صغير يحوي بعض الغرف ومزود بالخدمات يطلق عليه «منتزه قنا» هذا المنتزه يحمل طابعاً تقليدياً يتماشى مع طابع المدينة، ومع أن هذه المنتزه يبعد عن الخط الإسفلتي قرابة ثلاثة كيلومترات حيث تؤدي إليه طريق صحراوية معبدة الأمر الذي يشكل صعوبة على الحافلة في تجاوز الرمال ولكن كانت الرغبة لدينا أقوى من هذه المعضلة دخلنا الخط الرملي وماهي إلا أمتار قليلة حتى تعرقلت الحافلة بالرمال، البعض منا واصل مشواره إلى المنتزه سيراً على الأقدام، وفعلاً كان المنتزه جديراً بالعناء والتعب فمعظم المباني البسيطة التي يحتويها قائمة على الطين والقش فضلاً عن استخدام عسف النخل في عمل المضلات والكراسي الخشبية التي أكسبت المكان خصوصية مزجت بين التاريخ والجمال وما زاد ذلك المكان رونقاً وتألقاً هو شموخ الجبل الذي ظل ولسنوات طويلة حاملاً لأهم القلاع التي اشتهرت في زمن كانت بئر علي مدينة استراتيجية هامة للتجارة العالمية.

ندرة في السياح

دقائق جميلة قضيناها في ذلك المنتزه الذي استطاع بكراسيه وظلاله النخيلية أن ينسينا حرارة الشمس الحارقة التي كانت تعم المكان، وما أشعرنا بالحزن والأسى هو خلو ذلك المكان الرائع والجميل من السياح والزائرين تحادثنا مع حارس المنتزه الذي أخبرنا أن هذا المكان كان يعج بالسياح بيد أنه أصبح خالياً من السياح باستثناء وجود بعض المسلحين الذين يرتدون الزي المدني دخلوا إلى المنتزه أثناء تواجدنا فيه، وعندما سألنا الحارس عنهم أخبرنا أنهم يتبعون إحدى القبائل في تلك المنطقة وأنهم يأتون إلى المنتزه قاصدين المدير ليتحدثوا معه على مسائل تهم المنتزه ولم يفصح الحارس على ماهية تلك المسائل إلا أن المدير يتهرب منهم»..

أوساخ وأكياس

خرجنا من ذلك المنتزه الجميل وكنا نرغب المكوث أكثر إلا أن برنامج الرحلة لابد وأن يسير وفقاً لما خطط له فهناك الكثير من المناطق والمواقع التي لازلنا نريد اكتشافها، مررنا بمركز مدينة بئر علي وميناءها القديم الذي أصبح مركزاً للصيد، أما المدينة فهي في حالة سيئة جداً، فالأوساخ والأكياس البلاستيكية تنتشر بكثافة في تلك المدينة حاولنا أن نغمض أعيننا حتى لا نضيع على أنفسنا شعور المتعة والسعادة التي انطبعت علينا من تلك الشواطئ والسواحل الجميلة في بئر علي إلا أن مركز المدينة عكر صفو تلك الأحاسيس وكان لسان حالنا يقول: «يافرحة ماتمت».